المجالس العلمية للخلفاء في بغداد

م.م أسارى فلاح حسن
كلية الآداب جامعة بغداد

الملخص

البحث دراسة عن المجالس العلمية للخلفاء في العصر العباسي الاول في بغداد . كان الاهتمام واضحا في موضوع المجالس وبشكل خاص المجالس العلمية للخلفاء، لأنها تعكس الوجه الحقيقي لبغداد بلد العلم والعلماء بلد الادب والحضارة والفن والرزق الرفيع، وكان للخلفاء العباسيين الفضل في ابراز هذه المحاسن وذلك بتشجيعهم للعلم والعلماء كونهم رعاة العلم، بل من افاضل العلماء بذلك يقول صاحب كتاب نبذة من كتاب التاريخ عن الدولة العباسية: انها دولة مباركة ردت الامور الى قرارها واسندت القضايا والاحكام الى خيارها ونشا فيها العلماء والفقهاء وتدرج بمكانها نقلة حديث الرســـول(صل الله ليه واله وسلم) والقراء وظهر برغبات اصحابها الادب والادباء، فالخليفة المنصور كان مقدما في علم الكلام ومكثرا من كتاب الاثار. وكذلك فان الخليفة المهدي محبا للأدب جادا في محاربة الزنادقة وتشجيع العلماء في التأليف والرد عليهم وسار ابنه الهادي على سنة ابيه.

وعاشت بغداد عصرها الذهبي ايام الرشيد الذي كان شغوفا بالفنون والعلوم، ولقد كان لظهور الترجمة اثر كبير في ازدهار العلوم المختلفة، وقد نشطت الترجمة ايام المأمون الذي كان من عظماء الخلفاء ومن عقلاء الرجال.

هذه المجالس العلمية كانت بمثابة مدارس علمية تطرح فيها القضايا المختلفة وتناقش بحرية وسعة افق. لقد اكثرت كتب التاريخ والادب والثقافة العامة في انجاز هذه المجالس ورسمت لها صورا تدل على ثقافة اولي الامر ورعايتهم للعلم والمعرفة، وفي البحث تفصيلا لذلك.

Abstract

The research is concerning the scientific councils of the age of the Abbasy Khalifa. They had paid a great deal of attention to the councils in general and the scientific ones in particular. They believed that, such

councils reflects the real face of Baghdad, the land of science and scientists, Arts and literatures.

Baghdad had lived its golden years during the days of the Abbasy Khalifa AL Rasheed, who admired all types of Arts and sciences. He encouraged translation and under his rule, it flourished and had a great impact on the development of all Arts and sciences.

Finally, those scientific councils were considered as scientific institutions presenting and discussing freely all types of cases and phenomena

المقدمة

المجلس في اللغة من جلس جلوسا وجلس ضد قام. اجلسه صيره جالسا،او مكنه من الجلوس ، وجالس شارك في الجلوس، والمجلس موضع الجلوس، وجماعة الجلوس اي اهل المجلس. وللمجالس في التراث العربي ادب خاص اثراه العلماء العرب لكثرة ما كتب فيه، فكان للمجلس والمجالسة داب ورسوم وللجليس آداب وحق المجالس الصالح .

بدأت هذه الآداب والرسوم بشكل بسيط فقد اتسمت في العصر الراشدي بالبساطة والتواضع وكانت تعقد في المسجد لأمور معينة تخص نشر الاسلام وارسال الجيوش او لحل النزاعات التي تحصل بين المسلمين. ولما انتقلت الخلافة ال الامويين واتسعت الدولة بكثرة الاقاليم وتزايد الموارد المالية انسحب هذا على المجتمع وبالذات مجالس الخلفاء وبعد ان انتقل الحكم الى العباسيين زاد الاهتمام بالمجالس واهتم الخلفاء باستقدام من عرف برجاحة الراي والعقل من الرواة والعلماء والادباء، ولقد تنوعت هذه المجالس وبكل خاص في بغداد دار السلام فهناك مجالس المظالم ومجالس الخلفاء والشعراء ومجالس المناظرة والمذاكرة ثم مجالس اهل الحديث وجالس الاملاء والاستملاء التي كان لها اهمية كبير حيث الفت فيها كتب خاصة منها الامالي التي أغنت التراث العربي الاسلامي لأنها تناولت علوم عدة.

وقد توج هذا الاهتمام بمجالس العلم وآدابها في العصر العباسي واصبحت مادة للتأليف وكتب عنها اشارات وفصول في الكتب الادبية وقد استفدنا من هذه المصادر كما مبين في ثنايا البحث.

ان موضوع البحث هو حصرا في مجالس الخلفاء العلمية في بغداد اما بقية المجالس فهي للعلماء في العلوم المختلفة وهي تدرس في بحوث اخرى مستقلة ولابد من الاشارة الى ان هذه المجالس العلمية للخلفاء تناقش فيها الامور العامة وهي صورة حضارية رائعة لمجتمع متحضر وهي صورة لبغداد بلد العلم والعلماء ومركز للفن الرفيع ولم تتوقف هذه المجالس طيلة الخلافة العباسية حتى في فترات التسلط الاجنبي وكانت هذه المجالس هي اللبنات الاولى لحضارة بغداد ومجدها التليد.

المجالس في التراث العربي

للمجالس في تراث العربي ادب خاص اثره العلماء العرب بكثرة ما القوا فيه. فكان للمجلس والمجالسة آداب ورسوم وللجليس آداب وحق المجالس الصالح.

بدأت هذه الآداب والرسوم بشكل بسيط يتفق مع طبيعة المرحلة التاريخية فقد اتسمت في العصر الراشدي بالبساطة والتواضع وعدم التنوع. وكانت تعقد في المجلس لأمور معينة تخص نشر الإسلام وارسال الجيوش لتحرير الأراضي العربية او تعقد لحل النزاعات والخصومات التي تحدث بين المسلمين.

وهكذا كانت هذه المجالس تتفق مع حالة التواضع والبساطة في العصر الراشدي التي يعيشها المجتمع آنذاك ولقرب المرحلة من عصر الرسول ﷺ.

ولما انتقلت الخلافة الى الامويين واصبحت دمشق عاصمة الدولة العربية. واتسعت الدولة بكثرة الأقاليم وتزايد الموارد المالية انسحب هذا على المجتمع وبالذات مجالس الخلفاء وأصبح لهذا الموضوع اهمية كبيرة لتعدد جوانبه فمنها ما يتعلق بمجلس الخليفة والمنبر والسرير والكرسي، وما يستخدمه الخفاء من انواع الفرش والبسط، والمرواح والستور، وطريقة الجلوس وغيرها من الآداب والرسوم ولسنا بصدد الدخول في هذا الموضوع لاننا سنقتصر على مجالس الحلفاء العلمية في بغداد فقط.

الا اننا لا نستطيع اعطاء الموضوع حقه من الوضوح مالم نذكر او نشير الى هذه الرسوم التي ظهرت في العصر الأموي لان الاستمرار الثقافي يحتم علينا ذلك.

ولا بد من القول ان هذه التقاليد والرسوم الخاصة بالمجالس العلمية عند خلفاء بني العباس لم تظهر فجأة في العصر العباسي بل ظهر الكثير منها ايام الامويين ولهم الفضل في ارساء الكثير من قواعدها.

فقط كانت هناك آداب للجلوس في مجلس الخليفة وآداب للحديث والاستماع، وآداب للطعام على مائدة الخلفاء، ومراسم لأنهاء مجلس الخليفة.

ومثل ما تعددت هذه الآداب والرسوم تعددت المجالس واصبحت لها خصوصية جعلتها تتطور وتأخذ دورا كبيرا لمساعدة الخليفة في ابداء الراي واتخاذ القرار في مختلف الامور.

ولعل اهتمام الخلفاء باستقدام من عرف برجاحة الراي والعقل من الرواة والعلماء والادباء بين المكانة التي اتخذتها هذه المجالس.

ومن هذه المجالس: مجالس المظالم، ومجالس الخلفاء من الشعراء ومجالس العلم والمناظرة والمذاكرة.

الكتب التي تناولت المجالس

لقد توضحت هذه الرسوم والآداب الخاصة بالمجالس ومجالس العلم والمذاكرة والمناظرة وتزايد الاهتمام بها بعد بناء مدينة بغداد دار السلام وقد توج هذا الاهتمام بالمجالس وادابها في العصر العباسي فأصبحت مادة للتأليف وكتب عنها اما في اشارات وفصول في الكتب الادبية ذات الاهتمامات المتنوعة ومنها ما كتبه الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) في البيان والتبين[1] والتاج في اخلاق للملوك وغيرها[2].

وما كتبه ابن عبد ربه الاندلسي (ت ٣٣٨هـ) في العقد الفريد في عدد من الابواب[3]: باب الاذن، باب الحجاب، باب المشورة، فضلا على اشارات عديدة الى مجالس الخلفاء العباسيين.

ثم مكاتبه محمد بن إسحاق الوشاء[4] (ت ٣٥٠) في كتابه الموشي او الظرف والظرفاء فقد خصص بابا سماه (البيان عن حدود الادب وما يجب على الادباء) فقال: "اعلم ان اول ما يجب على العاقل ان يبعه ويميل اليه ويشغله عليه:

مجالسة الرجال ذوي الالباب، النظر في افانين الآداب، وقراءة الكتب والاثار، وان يحس في السؤال، ويثبت في المقال ولا يكثر الكلام والخطاب، وان سئل عما يعمله اجاب وان لم يسال صمت للاستماع.. ولا يتكلم في ما لا يعلم ولا يناظر في ما لا يفهم ..

اما يوسف بن عبد البر القرطبي[5] (ت 463) فقد استهل كتابه "بمهجة المجالس وانس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس".

بفصل سماه "باب آداب المجالسة وحق الجليس الصالح" ذكر فيه آداب حضور المجالس مشيراً الى عدد من الاحاديث النبوية الشريفة.

كما اشار الى احترام الداخل للمجلس، واعطاء حق اهل العلم في المجالس وذكر حديثا عن النبي محمد ﷺ قال: " لا يوسع في المجالس الا لثلاثة لذي علم لعلمه والذي سن لسنة او لذي سلطان لسلطانه"

وذكر قولا للحسن البصري : "انتقوا الاخوان، والاصحاب والمجالس".

وقد خصص محمد بن الحسن الحضرمي[6](ت489هـ) في كتابه الاشارة الى آداب الامارة "الباب التاسع من كتابة في هيئة الجلوس والركوب وسائر التصرفات، اشار فيه الى كثير من ادب المجالسة ومجالس الخلفاء والامراء العباسيين.

كما اشار شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري[7] (ت 732هـ) في كتابه نهاية الارب في معرفة اخبار العرب بابا سماه |الادب في محادثة السلطان" ذكرا فيه امورا عدة من حق المحادثة وواجب المؤانسة وراء المراء مع الاكفاء وما الى ذلك من الامور اما الصابي[8] ت (448هـ) فقد كتب كتابا سماه "رسوم دار الخلافة" خصص فيه بابا واسعا سماه "آداب الخدمة" جمع فيه كل الرسوم والآداب المتبعة في مجالس الخلفاء والامراء في المرحلة التي عاشها واشار الى عدد من الخلفاء وما كان يدور في مجالسهم ومنهم المأمون، والمعتصم، والواثق، كما ذكر كيفية تعامل الوزراء والقادة والحجاب والقضاة والفقهاء والقراء وولاة العهود وغيرهم بداء من دخول المجلس الى الاستماع الى المحاورة والمناظرة والمذاكرة واعطي به صورة واضحة لما كان يجري في مجالس الخلفاء العباسيين العلمية تمثل المرحلة التي عاصرها.

كما اشار في فصول اخرى الى قضايا تتعلق بملابس من يجلس في المجالس في الايام الاعتيادية وفي الاعياد والمناسبات وآداب المسايرة في المواكب وغيرها من الامور[9].

كما اشار الصابي في كتاب اخر له هو " تحفة الامراء في تاريخ الوزراء[10]، الى موضوع طريف سماه "باب ارزاق الجلساء" ذكر فيه ان الخلفاء يكرمون الجلساء ويخصصون لهم ارزاقا شهرية وايام شهرهم (45) يوماً، وكان راتبهم اليومي 44 دينارا وثلثا[11].

ثم تلت هؤلاء المؤلفين مؤلفات اخرى في الموضوع نفسه لم نشا الاشارة اليها لتأخر عهدها ولان ما ذكرته لا يختلف عما ذكرناه ومن هؤلاء القلقشندي[12] (ت821هـ) في كتابه "صبح الاعشى في صناعة الأنشا" وكتاب " مأثر الأناقة في معالم الخلافة"

وهكذا كان الاهتمام واضحا بموضوع المجالس وبشكل خاص المجالس العلمية ومجالس المناظرة والمذاكرة لأنها تعكس الوجه الحقيقي لبغداد بلد العلم والعلماء، بلد الادب، والحضارة والفن والذوق الرفيع فهي كما صفها ابنها البار الخطيب البغدادي[13] 463هـ) صاحب "تاريخ بغداد فقال بعد ان عدد مناقبها الكثيرة"... من الاخلاق الكريمة، والسجايا المرضية، والمياه العذبة الغدقة والاحوال الجميلة والحذق في كل صنعة، والجمع لكل حاجة، من ظهور البدع، والاغتباط بكرة العلماء والمتعلمين، والمتفقين، ورؤساء المتكلمين، وسادة الحساب والنحوية، الشعراء، ورواة الاخبار والانساب وفنون الآداب وحضور كل طرة م عيون التجار المجهزين، والسلاطين المعظمين، واهل البيتوتات المبجلين.. فهي من خزائن الله العظام.. م هي مع ذلك منصورة محبورة، كلما ظن عدو الاسلام انه فائز باستئصال اهلها وكبه الله وكبه لمنخريه واتصلت قدرته بما ليس في تقدير الخلق اجمعين فضلا من الله نعمة والله ذو الفضل العظيم.

هذه المحاسن التي اجتمعت في بغداد هيا الله سبحانه وتعالى لها يقدرها حق قدرها فأصبحت بغداد قبلة الانظار ومحط رحاب العلماء ورجال الادب، ظلت صريحا عربيا شمخا ناطقا بعظمة الامة وتراها المجيد.

المجالس في العصر العباسي

لقد كان للخلفاء العباسيين الفضل في ابراز هذه المحاسن والفضائل بتشجعيهم للعلم والعلماء لكونهم رعاة العلم بل من افاضل العلماء ولذلك ورد في مختصر كتاب اخبار العباس[14] حين يتكلم عن الدولة العباسية: "انها دولة مباركة ردت الامور الى قرارها، واسندت القضايا والاحكام الى خيارها. ونشأ فيها العلماء والفقهاء والامن وتدرج بمكانها نقلة حديث الرسول، ﷺ، والقراء الفقهاء وظهر برغبة اصحابها الادب والادباء".

فالخليفة المنصور كان كما وصفه الجاحظ "مقدما في علم الكلام ومكثرا من كتاب الاثار ولكلامه كتاب يدور بين ايدي الوراقين".

والخليفة المهدي محب للأدب ومشجع على التأليف فيه جادا في محاربة الزنادقة والبحث عنهم في الافاق. وتشجيع العلماء في التأليف بالرد عليهم وابطال دعاواهم.

وسار الخليفة الهادي على سنة ابيه في محاربة الزندقة وحبه للآداب وتشجيعه للشعراء.

وعاشت بغداد عصرها الذهبي ايام هارون الرشيد الي كان شغوفا بالفنون والعلوم وكان قصره الزاهي الزاهر مركز لمختلف الثقافات.

واما ولعه بالشعر وضروب الادب واجازاته للشعراء بسخاء فحديثها طويل لا مجال للخوض فيه.

وكانت دولة الخليفة هارون الرشيد كما يقول الفخري[15] "من احسن الدول واكثرها وقارا ورونقا وخيرا، واوسعها رقعة مملكة.. ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء، والقراء، والقضاة والكتاب والندماء والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد.. وكان فاضلا شاعرا رواية للأخبار والآراء والاشعار، صحيح الذوق والتمييز مهيبا عند الخاصة والعامة".

ولابد هنا ان نشير الى حركة النقل والترجمة في لدولة العباسية التي يمكن تقسيمها الى ثلاثة ادوار، الاول من خلافة ابي جعفر المنصور وحتى وفاة هارون الرشيد اي من 136ه- 193ه.

والثاني من تولي المأمون الخلافة 198هـ- 300 هـ، اما الدور الثالث فيبدا من 300 هـ - 398 هـ.

وقد ترجمت هذه الادوار كثيرة من لغات متعددة في مختلف فنون المعرفة في الفلسفة والادب والطب والرياضيات والنجوم.

ولقد نشطت هذه الحركة في عصر المأمون الذي كان وافر العلم غزير الاطلاع وليس ذلك بغريب على خليفة ملا عصره بأنواع المعارف الانسانية ونفخ فيه من روحه القوى حتى استطاع ان يسمه بسمته، وان يرجع فضل الحضارة العباسية اليه.

ولذلك يقول ابن طباطبا: [16] " واعلم ان المأمون كان من عظماء الخلفاء ومن عقلاء الرجال وله اختراعات كثيرة في مملكته).

ان اول من فحص منهم عن علوم الحكمة، وحصل كتبها وامر بنقلها الى العربية وشهرها، وحل اقيلدس ونظر في علو م الاوائل، وتكلم في الطب وقرب اهل الحكمة".

وان الخليفة المأمون امتاز بعلمه وثقافته لم يقف عند حد الثقافة الذاتية وانها وجه حرصه الى ان يثير في نفوس اصحابه كوامن الرغبة الى التعمق في الدرس، والشوق الى ادراك حقائق الاشياء. وكانت له في ذلك طريقة معروفة، هي توجيه السمر والحديث الى فنون العلم والمعرفة فكان يفتح لجلسائه ابوابا من القول ما كانت تخطر لهم ببال وبهذا استحق الخليفة المأمون لقب حكيم بني العباس.

ان هذه المجالس العلمية كانت بمثابة مدارس علمية تطرح فيها القضايا المختلفة وتناقش فنون المعرفة المختلفة بحرية واسعة الافق.

تناقش كل القضايا العلمية دينية ام دنيوية فهي مجالس للمناظرة والدفاع عن الاسلام وتفنيد اراء اعدائه ومقالاتهم. ونظر لأهمية هذه المجالس وقد اشار اليها

القلعي[17] (ت630ه) في بلد سماه "في مصاحبة الملوك ومخالطتهم وكيفية التحرز منهم في حال مجالستهم ومباسطتهم".

يقول القلعي: يجب على الملوك ان يختاروا لمجالسهم من جمع الرأي والعقل وجودة الادب والفضل، ومن اتصف بمكارم الاخلاق وطيب الاعراق.

وذكر الثعالبي، وقال: لا يتخذ الملك الاعوان، الا الاعيان ولا الاخلاء الا الاجلاء، والندماء الا الكرماء، ويجب على من يجالس ملكا ملازمة الادب في جميع احواله.

كما اوجبوا ان يكون المجالس عالما بالحلال والحرام، عارفا باشعار العرب واخبارها.

وكان للأشعار اهمية في هذه المجالس حتى انه كانت تعقد لها مجالس خاصة كما حدث ايام الرشيد والامين والمأمون وبقية الخلفاء العباسيين.

جلسوا للشعراء مجالس واثابوا فيها واعطوا ووهبوا من المنح ما وهبوا وبقيت للشعر مكانته في بغداد ايام العباسيين.

لقد احب العرب الشعر واستودعوه افكارهم واخبارهم وحفظوا به فخرهم وضمنوه اخلاقهم وعاداتهم وشؤون حياتهم.

وسوف نشير الى نماذج من هذه المجالس العلمية للخلفاء العباسيين في بغداد مدينة السلام، وستكون النماذج خاصة بالعصر العباسي خاصة بالعصر العباسي الاول اي القرن الثالث الهجري عصر الازدهار والنتاج العلمي والثقافي، عصر بيت الحكمة لان هذا العصر يمثل الاساس للثقافة العربية الاسلامية التي استمرت حية في كل العصور حتى في فترات التسلط، بل ازدادت قوة ومنعه وكان النتاج الفكري يمثل نوعا من انواع التسلط الاجنبي فبغداد في كل عصورها شامخة معطاء وستظل ان شاء الله صرحا شامخا ناطقا بعظمة الامة وتراثها المجيد.

لقد اكثرت كتب التاريخ والادب وكتب الثقافة العامة في ذكر اخبار هذه المجالس ورسمت لها صورا واضحة تدل على ثقافة اولى الامر (الخلفاء) ورعايتهم للعلم والمعرفة تملت فيها صورا حضارية رائعة لما دار في هذه المجالس ولما فيها من رسوم وتقاليد وآداب انفردت بها حضارتنا العربية الاسلامية هذه التقاليد والآداب استمدت من القيم العربية الاصيلة والدين الاسلامي الحنيف فجاءت صور متميزة للمجتمع العربي الاسلامي ولبغداد ام الدنيا وسيدة البلاد.

وفي ما يلي نماذج من هذه المجالس التي تدل تميز الخلفاء في مجال العلم والمعرفة والتوق الشديد الى ذلك. وقد تنوعت مادة هذه المجالس منها مجالس خاصة بالدين والفقه ضمت افاضل العلماء.

واخرى لعلوم اللغة كالنحو والشعر، ومنها ما اختص بالفلسفة والطب وكل قضايا الثقافة التي تميز بها عصرهم وتمل هذه المجالس صورة حضارية رائعة على وعي علمي وتمثل معارف العصر العلمية.

وقد كثرت هذه المجالس حتى اصبحت سمة للعصر ولم تكن للخلفاء فقط بل لأولادهم قبل تولي الخلافة فهذا الزجاجي[18] يحدثنا عن مجلس الكسائي علي بن حمزة وابن عبد الله اليزيدي بحضرة المهدي قبل ان يستخلف بأربعة اشهر.

قال تذاكروا ليلة عنده النحو والعربية، قال اليزيدي وكتب متصلا بخاله يزيد بن منصور والكسائي مع ولد الحسن الحاجب فبعث الي والى الكسائي فلما دخلا على المهدي اقبل علي فقال: كيف نسبوا الى البحرين فقالوا بحراني والى الحصنين فقالوا حصني هلا قالو حصنائي كما بحراني. فقلت ايها الامير في النسب الى البحرين بحري لا لبس فلم يدر النسبة الى البحرين وقعت ام الى البحر؟ فزادوا الفأ للفرق بينهما، كما قالوا في النسب الى الروح روحاني ولم يكن لحصنين شيء يلتبس به فقالوا حصني على القياس.

ثم يستمر النقاش حول هذه القضية ويشارك فيها المهدي مشاركة العالم الخبير. ولا يكتفي برأي من حضر المجلس بل يستعين بأخرين من خارج المجلس وتبقى المسألة معلقة حتى يعلم الرأي الصحيح.

فهذا يدل على اهمية مثل هذه المجالس ومشاركة الخليفة فيها ويذكر الزجاجي مجلسا اخر ايام الرشيد حضره الكسائي والاصمعي[19] قال:

كان الكسائي والاصمعي بحضرة الرشيد وكانا ملازمين ويظعنان بظعنه. فاشتد الكسائي:

انى جزوا عامرا سوءى بفعلهم ام كيف يجزونني السوئ من الحسن
ام كيف ينفع ما تعطى العلوق به رثمان انف اذا ماضن باللبن

ويذكر الزجاجي الحوار الذي دار بين الاصمعي والكسائي حول (رثمان) هل هي بالرفع ام بالنصب.

وينقلب الكسائي على الاصمعي لأنه لم يكن له علم بالعربية بل صاحب لغة.

والخليفة الرشيد حاضر يسمع النقاش ويشارك فيه مشاركة عالم ذا خبرة.

ويعطي الزجاجي مثلا على قدرة الخلفاء في قول الشعر فيذكر مساجلة للخليفة الراضي بالله مع الصولي، فيذكر عن الصولي[20] انه قال: انشدت الراضي بالله ايام خلافته لنفسي:

يا مليح الدلال رفقا بصب يشتكي منك جفوة وملالا
نطق السقم بالذي كان يخفى فأسال الجسم ان اردت السؤالا
قد اتاه في النوم منك خيال فراه كما اشتهيت خيالا
فتحاماه للضنى السن الذ ل فاضحى لا يعرف الغدالا

فعمل الراضي ابياتا في المجلس نفسه وهي:

ضللت في حبكم فحسبني حتى متى اتبع الضلالا
وزراني منكم خيال فزرت اذ زارني خيالا
راى خيالا على فراش ولا اراه راى خيالا

وهكذا كانت مقدرة الراضي بقدرة وسرعة بديهيته في قول الشعر:

وكان الخلفاء العباسيين يتذوقون الشعر ويحفظون احسنه فمن مجالس المأمون ذكر ابن طيفور (ت 218 هـ) : ان المأمون كان في مجلس من مجالسه وعنده جماعة من قريش فسألهم ايكم يحفظ ابيات عبد الله بن الزبعري التي يعتذر فيها الى رسول الله، ﷺ، فقال مصعب بن عبد الله الزبيري (ت:236هـ) انا يا امير المؤمنين قال فانشدنا، فانشد:

منع الرقاد لابل وهموم والليل معتلج الرواق بهيم
مما اتاني لن احمد لامني فيته فيت كانني محموم
اني لمعتذر اليك من الذي انشلت اذا انا البلاد اهيم
فاليوم انس بالنبي محمد قلبي ومخطيء هذه محروم
فاغفر فدا لك والدي كلاهما ذنبي اليك فانك راحم مرحوم
ولقد شهدت بان شهدت دينك صادق حق وانك في الانام عظيم
والله يعلم ان احمد مصطفى فتقبل في الصالحين عظيم
مضت العداوة فانقضت اسبابها ودعت اواصر بيننا وحلوم

فأمر المأمون لمصعب بثلاثين الف درهم وقال : ليكن القرشي مثلك.

ولمجالس المأمون شهرة كبيرة تناقلتها كتب التاريخ والادب لأهميتها ولتنوع مواضيعها ولما حفلت به مجالسه من افاضل العلماء والادباء.

كما كان لمجالسه الدينية اثر كبير في الدفاع عن الاسلام ومبادئه- ذكر ابن طيفور[21] عن يحيى بن اكثم انه قال: امرني المأمون عند دخوله بغداد ان اجمع له وجوه الفقهاء واهل العلم من اهل بغداد فاخترت له من اعلامهم 40 رجلا واحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وافاض في فنون الحديث والعلم.

ويقول ابن اكثم فلما انقضى ذلك المجلس الذي جعلناه للنظر في امر الدين. قال المأمون يا ابا محمد كره ذلك المجلس الذي جعلناه للنظر في طوائف الناس بتعديل اهوائهم وتزكية آرائهم.

وهذا الامر يدل على سعة علم المأمون واعطائه المجال للنقاش والمناظرة في امور الدين.

ويستمر ابن طيفور في ذكر تفاصيل كثيرة دارت في المجلس وكان المأمون فارسها.

وكان للمأمون قدرة على اقناع الخصم تدل على ذلك مجالسه مع المرتدين والمدعين فمنها ما ذكره ابن طيفور نقلا عن تمامه قال: ارتد رجلا من اهل خراسان فامر المأمون بحمله الى مدينة السلام فلما ادخل عليه اقبل بوجهه له: لان استحييك بحق واجب احب الي من ان اقتلك ولان ادفع عنك بالتهمة وقد كنت مسلما بعد ان كنت نصرانيا وكنت في الاسلام اقبح مكانا واطول اياما فاستوحشت مما كنت به انسا، ثم لم تلبث ان رجعت عنا نافرا فخبرنا عن الشيء الذي اوحشك من الشيء الذي صار انس لك من ذلك القديم وانسك الاول فان كنت وجدت عندنا دواء داءك تعالجت به اذا كان مريضا يحتاج الى مشاورة الاطباء فان اخطاك الشفاء ونبأ عن داءك الدواء ولم ترجع

عن نفسك بلائمة فان قتلناك بحكم الشريعة ترجع انت في نفسك الى الاستبصار والقة وتعلم انك لم تقتصر في اجتهاد ولم تدع الاخذ بالحزم.

وما زال المأمون يحاجه حتى اقتنع وقال اشهد ان لا اله الا الله وان محمد رسول الله صادق وانك امير المؤمنين حقا.

ويقول ابن طيفور[22] فصلى المأمون وقال لأصحابه وفروا عليه عرضة ولا تبروه في يومه ريثما يعتق اسلامه كيلا يقول عدوه ان يسلم بره وتأنيسه.

ويذكر ابن عبد ربه مجلسا للمأمون[23] يناظر فيه الفقهاء في القضايا الدينية يقول: قال حماد بن زيد ان المأمون بعث الى يحيى بن اكثم قاضي القضاة، فقال: ان امير المؤمنين امرني ان احضر معي غدا مع الفجر40 رجلا كلهم فقيه يفقه ما يقال ويحسن الجواب فسموا من تظنونه يصلح لما يطلب امير المؤمنين فسمينا له عدة وذكر هو عدة حتى تم العدد الذي اراد وكتب بتسمية القوم وامر بالبكور في السحر فغدونا عليه قبل طلوع فوجدناه قد لبس ثيابه وهو جالس ينتظرنا فركب وركبنا معه فادخلنا فامرنا بالصلاة فأخذنها فيها فلم نستتمها حتى خرج الرسول فقال ادخلوا فدخلنا فاذا امير المؤمنين جالس على فراشه وعليه سواده وطيلسانه وعمامته فسلمنا وامرنا بالجلوس، فلما استقر في الجلوس تحدر من فراشه ونزع عمامته وطليسانه ووضع قلنسوته ثم اقبل علينا فقال انما فعلت ما رأيتم لتفعلوا مثل ذلك. واما الخف فمنع من خلعه علة من عرفها منكم فقد عرفها، ومن لم يعرفها فسأعرفه بها، ومد رجله. ثم قال انزعوا قلانسكم وخفافكم وطيالسكم فنزعنا ورجعنا فلما استقر بنا المجلس قال: انما بعثت اليكم معشر القوم في المناظرة فمن كان به شيء من الاخبثين لم ينتفع بنفسه ولم يفقه فمن اراد منكم الخلاء فهناك واشار بيده فدعونا له. ثم القى مسألة من الفقه، فقال: يا ابا محمد قل وليقل من بعدك. فأجابه يحيى ثم الذي يليه حتى اجاب اخرنا في العلة وعلة العلة وهو مطرق لا يتكلم حتى اذا انقطع الكلام التفت الى يحيى فقال: يا ابا محمد، اصبت الجواب وتركت الصواب في العلة ثم لم يزل يرد مع كل واحد منا مقالته ويخطى بعضنا ويصوب بعضنا حتى مع اخرنا.

ان ما دار في هذا المجلس يمكن ان نستشف منه امور عديدة منها ادب المجالس وحب الخلفاء للعلم واحترام اراءهم وان الخليفة يشارك مشاركة فعالة في المناظرة والنقاش.

ومثل ما كان الخلفاء يعقدون مجالس الشعر والفقه والمناظرة كانت تعقد المجالس للنظر في صحة الابدان وما يصلحها وكان للخلفاء معرفة واسعة للطب والدواء.

فمما ذكر ابن عبد ربه الاندلسي[24] مجلسا لهارون الرشيد قال الرشيد من الاطباء: اربعة، عراقي ورومي وهندي ويوناني وقال ليصف لي كل واحد منكم الدواء الذي لا داء معه.

فقال العراقي: الدواء الذي لا داء معه حب الرشاد الابيض وقال الهندي الاهليلج الاسود، وقال الرومي الماء لحار وقال اليوناني حب الرشاد لابيض يولد الرطوبة،

والماء الحار يرخي المعدة والاهليلج الاسود يرق المعدة. ولكن الدواء الذي داء معه ان تقعد على الطعام وانت تشتهيه، وتقوم عنه وانت تشتيه.

ولما دخل المأمون الى بغداد واستقر بها يذكر ابن طيفور[25] ان المأمون امر جعفر بن محمد الانماطي ان يدخل عليه من الفقهاء والمتكلمين واهل العلم جماعة يختارهم لمجالسته. وكان يقعد في صدر نهاره على لبود في الشتاء، وعلى حصر في الصيف ليس معهما من سائر الفرش ويقعد للمظالم في كل جمعة مرتين وان لا يمتنع منه احد.

واختير له من الفقهاء لمجالسته مئة رجل فما زال يختارهم طبقة بعد طبقة حتى حصل منهم عشرة كان احمد بن ابي داود احدهم، وبشر المريسي وجعفر بن محمد الانماطي.

ويقول الانماطي تغذيتا يوما عنده ووضع على المائدة الوان كثيرة فكلما وضع المأمون اليه فقال هذا يصلح لكذا، من صاحب صفراء فليأكل من هذا، ومن غلبت عليه السوداء فليأكل من هذا، ومن احب الزيادة في لحمه فليأكل من هذا.

ومن كان قصده قلة الغذاء فليقتصر على هذا.. وما زالت هذه حالة حتى رفعت الموائد فقال له يحيى فقال له يحيى بن اكثم ان خضنا في الطب كنت جالينوس في معرفته، او النجوم كنت هرمس في حسابه، فسر ذلك الكلام وقال: يا ابانا ان الانسان انما افضل عل غيره من الهوام بفعله وعقله وتميزه، ولولا ذلك لم يكن لحم اطيب من لحم، ولادم اطيب من دم.

ولم تقتصر هذه المجالس على القضايا العلمية بل كان يناقش فيها الامور العامة وصفات الناس فذكر ابن طيفور[26] انه في احد مجالس المأمون تذاكروا المساوئ والمحاسن فقالو ما من كريم الا وفيه خصلة تعفى مساوئه ولا في سفلة خصلة تعفي على محاسن ان كانت فيه.

هذا طرف من مجالس الخلفاء العلمية وهي صورة حضارية رائعا لمجتمعه متعلم متحضر، صورة لتعداد بلد العلم والعلماء مركز الذوق والفن والفكر والرفيع.

هذه المجالس وهذا التوق العلمي من قبل علماء بغداد لم يتوقف طيلة الخلافة العباسية حتى في عصور التسلط الاجنبي كانت هذه المجالس هي اللبنات الاولى لحضارة بغداد ومجدها التليد.

وها هي بغداد تواصل الماضي المجيد بالحاضر المشرق المزدهر تتحدى الصعاب وتواصل مسيرة العلم والبناء برغم كل الظروف وبرغم هذا الحصار الثقافي الجائر وتظل ابدا صرحا علميا شامخا.

الخـاتـــمة

من خلال ما توفر لدينا من اخبار المجالس العلمية للخلفاء ظهرت لنا مسالة مهمة هي ادب هذه المجالس والادب هو الظرف وحسن التناول او الانتداب لما يندب له الانسان او فصل المكارم، وقد اكدت هذه المجالس في رسومها الى آداب خاصة بالجلوس والانصراف وفي المحاورة وكل ما يتعلق بمكان الجلوس من فرش وامور اخرى. ان هذه الآداب والرسوم خاصة بالحضارة العربيــة الاسلامية التي دلت على ذوق رفيع

فهي صورة رائعة من تراثنا العربي الاسلامي والذي له الفضل على الحضارة الاوربية والانسانية جمعاء.

الهوامش

([1]) البيان والتبيين: الجاحظ، ابو عثمان عمو بن بحر (ت. 255 هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هاون، القاهرة، مكتبة الخانجي 1968.
([2]) التاج في اخلاق الملوك: الجاحظ، تحقيق: احمد زكريا باشا، القاهرة، المطبعة الاميرية، 1914.
([3]) العقد الفريد: ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي (ت 328هـ) ، تحقيق: احمد الزين واحمد امين وابراهيم الابياري، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1940. ج 2، ص428.
([4]) كتاب الموشى او الظرف والظرفاء : محمد بن اسحاق الوشاء (ت 350 هـ)، ط 1، عالم الكتب، بيروت، باب البيان عن حدود الادب ، ومجالسة الرجال ذوي الالباب.
([5]) بهجة المجالس، وانس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس: يوسف بن عبد البر القرطبي (ت 463 هـ)، تحقيق: موسى مرسي الخولي، بيروت، دار الكتب العالمية، ط 1981،2 ، ج1، ص 39-53 .
([6]) الاشارة الى ادب الامارة، محمد ين الحسن الحضرمي(489هـ)، تحقيق: د. رضوان السيد، بيروت، دار الطليعة، 1981، الباب التاسع، ص 115- 119.
([7]) نهاية الارب في فنون الادب، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويوي (ت 732هـ)، طبعة دار الكتب المصرية، ج 4، ص 118.
([8]) رسوم دار الخلافة، ابو الحسين هلال بن المجسن الصابي (ت 448 هـ، تحقيق: ميخايل عواد، بيروت، دار الرائد العربي، 1986، باب ادب الخدمة، ص 31.
([9]) المصدر نفسه، ص31.
([10]) تحفة الامراء في تاريخ الوزراء: الصابي، تحقيق: عبد الستار احمد فراج، دار الكتب العربية، 1958.
([11])المصدر نفسه، باب ارزاق الجلساء.
([12]) صبح الاعشى في صناعة الانشاء: ابو العباسي احمد بن علي بن احمد (ت821هـ) ، مصر المؤسسة العامة للتاليف والترجمة والنشر، 1963.
([13]) تاريخ بغداد: ابو بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي (ت 463هـ) ، بيروت، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، ج1، ص 50- 51.
([14]) نبدة في كتاب التاريخ،مؤلف مجهول، تحقيق:بطرس غريا زينوج، موسكو،معهد الدراسات الشرقية،1960، الورقة 6.
([15]) الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية، محمد بن علي بن طباطبا (ت 709هـ)، بيروت، دار صادر، 1960، ص 193.
([16]) المصدر نفسه، ص 216.
([17]) تهذيب الرياسة وترتيب السياسة: ابو عبدالله محمد بن علي القلعي، (ت 630هـ)، تحقيق: ابراهيم يوسف مصطفى عجو، الاردن، مكتبة المنار، 1985، باب مصاحبة الملوك ومخالطتهم وكيفية التحرز منهم في حال مجالستهم ص 151.
([18]) امالي الزجاجي، ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق (ت 340هـ)، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، بيروت، دار الجيل، 1987، ص59.
([19]) مجالس العلماء: الزجاجي ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الكويت، 1962، ص 9. وانظر: نزهة الظرفاء وتحفة الخلفاء: الملك الافضل بن رسول العباسي بن علي، بيروت، دار الكتاب العربي، 1985.
([20]) اخبار الراضي والمتقي، ابو بكر محمد بن يحيى(ت 335هـ)، نشره هيو ث د ن، بيروت،
([21]) تاريخ بغداد، ابن طيفور(ت 280هـ).
([22]) المصدر نفسه.
([23]) العقد الفريد: ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي، مصدر سبق ذكره.
([24]) المصدر نفسه.
([25]) ابن طيفور.
([26]) المصدر نفسه.

المصـــــــادر

(1) البيان والتبيين: الجاحظ، ابو عثمان عمو بن بحر تحقيق: عبد السلام محمد هاون، القاهرة، مكتبة الخانجي 1968
(2) بهجة المجالس، وانس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس: يوسف بن عبد البر القرطبي تحقيق: موسى مرسي الخولي، بيروت، دار الكتب العالمية، ط 2،
(3) التاج في اخلاق الملوك: الجاحظ، تحقيق: احمد زكريا باشا، القاهرة، المطبعة الاميرية، 1914
(4) الاشارة الى ادب الامارة، محمد ين الحسن الحضرمي(489هـ)، تحقيق: د. رضوان السيد، بيروت، دار الطليعة، 1981
(5) تاريخ بغداد: ابو بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي (ت 463هـ) ، بيروت، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت،
(6) تحفة الامراء في تاريخ الوزراء: الصابي، تحقيق: عبد الستار احمد فراج، دار الكتب العربية، 1958
(7) تهذيب الرياسة وترتيب السياسة: ابو عبدالله محمد بن علي القلعي، (ت 630هـ)، تحقيق: ابراهيم يوسف مصطفى عجو، الاردن، مكتبة المنار، 1985
(8) رسوم دار الخلافة، ابو الحسين هلال بن المجسن الصابي (ت 448 هـ، تحقيق: ميخايل عواد، بيروت، دار الرائد العربي، 1986
(9) صبح الاعشى في صناعة الانشاء: ابو العباسي احمد بن علي بن احمد (ت821هـ) ، مصر المؤسسة العامة للتاليف والترجمة والنشر، 1963.
(10) كتاب الموشى او الظرف والظرفاء : محمد بن اسحاق الوشاء (ت 350 هـ)، ط 1، عالم الكتب، بيروت،
(11) مجالس العلماء: الزجاجي ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الكويت، كتاب العربي، 1985.
(12) نبدة في كتاب التاريخ، مؤلف مجهول، تحقيق: بطرس غريا زينوج، موسكو، معهد الدراسات الشرقية، 1960.
(13) نهاية الارب في فنون الادب، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويوي طبعة دار الكتب المصرية،